

مَوْضُوعَاتُ أُولِيَّةٍ فِي الثَّقَافَةِ

سليم رضوان

إن اشكالية الاخفاق ، بمختلف ابعادها ، النخبوية والجماعية ، أصبحت محور نقاشات المثقفين ، كما أن الحدس الشعبي يعبر عنها بأشكال مختلفة ، مباشرة أو غير مباشرة . وهي تتخذ عادة شكل أزمة عامة ، فكرية وتنظيمية وسياسية ، ولذلك فحين طرح العروى برنامج الفكر الليبرالي كبديل نظري ، انطلاقاً من نفس الاشكالية ، كان يعتقد أن هذا الاخفاق ليس تنظيمياً بقدر ما هو اخفاق نظري ، أي تجاوز تاريخي لمرحلة تاريخية . ولذلك فالانتقادات التي وجهت للعروى متهمة إياه بالجدلي التجريدي أو النظرى النخبوي داعية إلى الواقع الحي ، تجاهلت موضوعات أساسية :

- I - الاعتراف بالاخفاق النظري .
 - 2 - اعطاء البديل ، أي بديل الليبرالية الفكرية .
 - 3 - تجاوز أزمة النظرية التي تعيشها النخبة بين التراث والمعاصرة ، بين الماركسية كمنهج وأداة للعمل وبين الماركسية كتصور عام للطبيعة والمجتمع والفكر . بين الاقتصادية التقنوقراطية وبين الأيديولوجيا .
- يجب إذن تحديد الاخفاق النظري ، إذ بدون تحديد النظرية فإن الممارسة لن تكون إلا سلسلة من الأخطاء ، من الاخفاقات تؤدي في نهاية المطاف إلى الانتهازية الفكرية . حقا ، إن الممارسة هي الفاصل بين الادعاء والحقيقة ، ولكن ، هل تكفى الممارسة وحدها لفهم الواقع ، عند ذاك لن تكون ممارسة ثورية بل تجريبية قاتلة .
- يجب إذن تحديد أبعاد هذا الاخفاق ومدلولاته ، ويتجلى ذلك في عدة مواقف: سياسية، فكرية، تنظيمية. فاليمين هو الذي يحدد تكتيك النخبة فهو الذي يستفيد منها في مآزقه ، مازال فكره مقدسا بل ما زالت النخبة تحمي فلسفته وشرعية هذا الفكر. وبعبارة واحدة، ما زالت الثقافة الثورية شعارا يتحول على صعيد الممارسة إلى ربط الحاضر بالماضي ، إلى مزج التراث بالمعاصرة ، إلى تلقين الاصاله بالمنهج المادى الجدلي . ولتحديد

هذا الاخفاق يجب معرفة اسبابه : هل هي راجعة الى عجزنا عن معرفة وفهم مجتمعنا نظرا لاستعمالنا منهجا غريبا عن هذا المجتمع ، ومن ثمة قاصرا عن ادراك خصوصياته ، ام نظرا لارتباطنا بمفاهيم تراثية لم تعد قادرة على استيعاب المجتمع الجديد ونتيجة تطور علاقاته وتغير بنيانه. ام ان السبب هو جهلنا بالمرحلة التاريخية المحددة التي يجتازها هذا المجتمع ومن ثمة ، تجاوز قوانين التاريخ ، أى ان تعاملنا مع التاريخ لا تاريخي ولا جدلي. بمعنى انه تعامل ذاتي ، اى لا ينطلق من التاريخ ، من محدّداته الموضوعية ، بل من افكارنا ، اختيارنا المسبقة التي تحدد التاريخ عوض ان يحددها .

١ - لماذا هذه الاشكالية : ان النقاشات الدائرة فى صفوف مثقفينا - بالرغم من ادعائها بأنها تنطلق من الواقع الحى، اى من الحياة، نقاشات مثالية، تتجاوز الواقع وتحكمه برؤية ضيقة مدعية تعبيرها عن روى كل الطبقات . انها تتجاوز ذاتها على صعيد الفكر محاولة تحقيق ذاتها على صعيد الفكر محاولة تحقيق ذاتها على صعيد الممارسة ومن ثمة مأساتها. ان ما يخيفها حقا هو القول بأن تفكيرها لا يبدو ان يكون تفكير طبقة معينة ، هامشية ، غير مؤهلة تاريخيا للقيام بدور تاريخي. ثم ، ان مأساة مثقفينا تنبع من الوصاية ، الوصاية اتجاه الجماهير اى المرشد الذى فى حاجة الى من يرشده. وهى وصاية نابعة من الممارسات السائدة فى المجتمع وعلى كل الاصعدة، وصاية التراث، وصاية السابقين فى ميدان السياسة، وصاية النصوص ، وبذلك يصبح من السهل وصف اى حركة ثقافية جديدة بكونها مستلبة اتجاه الغرب ، بل ووضعها فى نفس الميزان مع الحركات الثقافية الرجعية . وأخيرا ، فان علاقة مثقفينا بالجماهير ، علاقة واهية، فبالاضافة الى انهم لم يعلموها شيئا فهم لم يتعلموا منها ايضا . وفى الوقت الذى تحاول فيه الجماهير ان تكسر الاغلال بوسائلها الخاصة ترى مثقفينا يبررون الوضع ، ويطلبون للتراث ، وهم عوض ان يقوموا بهدم الجسر الذى يمر منه الفكر الاقطاعى الى صفوف شعبنا نراهم يزينون هذا الجسر بالورود .

انطلاقا من هذه الخصائص يمكننا تحديد البعد النظرى للثقافة ، لا الثقافة بمفهومها النخبوى او الوصى ، ولكن الثقافة ، كسلاح فكرى ، اذ ما دور الثقافة المهانة ، المبررة او الفارقة فى هموم الذات بدعوى الغربة، اى ما دور الثقافة كترف فكرى . ولكن الثقافة ليست سلاحا فقط ، بل سلاحا نقديا ، والافكار الصائبة او الخاطئة تجد حقيقتها فى الواقع الحى، فى مدى مطابقتها او عدم مطابقتها . والواقع الحى ، عادة ما يقصد به التجريبية ، عند ذاك يجب ان نرفض هذا الواقع باعتباره ثابتا وأن نتحدث عن الواقع الجامد. ان الثقافة سلاح نقدى حى لواقع متغير حى. وهى ليست

سلاحاً مجرداً بل سلاحاً طبقياً ، واشكائية الثقافة فى بلدنا انها تجهل منطلقاتها المادية أى التطبيقية ، وهى ترفض ان تسمى بثقافة بورجوازية صغيرة : الذاتية ، اليأس ، الغربة ، الوصاية ، تقديس الجماهير فى العلنية واحتقارها فى السر ، وأخيراً السقوط فى الانتهازية الفكرية . ان ثقافتنا متخلفة بالنسبة للنضال الجماهيرى ، انها تقف متوددة ، بعيون حالمة ، امام القمع الفكرى المسلط على فئات الشعب ، ولن يمكنها ان تتحول الى ثقافة ثورية بطريقة مجردة . بل انطلاقاً من موقع طبقي جديد ، من موقع اكثر الطبقات ثورية فى المجتمع ، من موقع بولتارى . وبذلك ستضع نفسها فى اكثر المناطق غليانا ، اذ سيكون من مهامها مواجهة أشرس أعدائها : الفكر الرأسمالى الاستعمارى والفكر التراتى الاقطاعى . وبالرغم مما يبدو من تناقض هذين الفكرين فانهما يعبران جسراً واحداً ويبرران وضعية واحدة ويستفيدان من نفس الوضعية ، وتلك مهمة الايديولوجيا . وان الثقافة لا يمكنها اداء هذه المهمة الا اذا تخلى مثقفونا عن عدد من الرواسب القديمة ، والافكار المسبقة ، الا اذا انطلقوا من اجل الحرية الحقيقية ، الا اذا انطلقوا من مفاهيم واضحة عوض الضبابية القائمة وأخيراً الا اذا استطاعوا ان يقيموا العلاقة الجدلية بين النضال الطبقي والقومى والاممى . وما دامت ثقافتنا عاجزة عن ادراك هذه العلاقات فانها ستسقط لا محالة ضحية تاريخية تستحق الازدراء بدل الرثاء . ومن الغريب حقا ان تفهم الرجعية قوانين التاريخ افضل من اليسار العربى ، ولذلك فهم لا تنسى ابان مواجهتها عدوا قومياً ، استغلال المناسبة لتصمية عدوها الطبقي ، واستغلال حماس الجماهير لتركيز الامبريالية ، ان الثقافة اليسارية فلم تدرك بعد جدلية هذا النضال ، ولذلك سقطت فى سلسلة من التكتيكات تحولت نتيجة تكرارها الى استراتيجية دائمة . ونتيجة لهذا الفهم الخاطىء تكون نتائج التكتيك سيئة وسلبية ، وعادة ما تكون هذه الخطوات غير متطابقة والمرحلة التاريخية . ولهذا فالبعد التاريخى فى ثقافتنا امر ضرورى والا فان عدداً من الاشكاليات لن يجد حله النهائى .

2 - هل هناك تعارض بين الفكر الغربى والفكر التراتى : ان النظرة المجردة وحدها تؤكد ذلك ، اما الواقع الحى فيرفض الاحكام المطلقة .

I - عدم تحديد المصطلحات : الفكر الغربى عادة ما يقصد به الاستعمار ، ولذلك فعادة ما نعتة كما فعل الاقدمون بالفكر الدخيل ، وهكذا ايضا ننظر للغرب من زاوية واحدة : الفكر الاستعمارى . ونعتبر هذا مقياساً حقيقياً للتمييز بين الافكار الاصيلية والافكار الدخيلة ، ان البعض يتناول هذه المسألة بسذاجة مطلقة ، ويجد حلها فى رفض كل الافكار «الدخيلة» والحفاظ وتقديس الاصاله . والبعض الآخر يبحث فى التراث لينتقى الافكار الصائبة وينبذ الافكار الخاطئة . ان كلا الموقفين

ينطلقان من مهام مندوسة تفرضها الوضعية المعاشية ، هناك نفى تصبغى
للتاريخ ضد التاريخ ، الماضى وحده ماضينا ، أما المستقبل فيجب ان
يخضع لهذا الماضى ، دور المستقبل اذن ان يكون امتدادا لى الماضى ، ومهمة
الحاضر انجاز هذه المهمة ك ان الفهم الحقيقي للواقع يقتضى عدم تجاوز
هذا الواقع فى التحليل ، عدم اهمال البعد التاريخى فى تحديد الاصلة
والمعاصرة ، اذ ان عددا كبيرا من الافكار ، بالرغم مما يبدو من تناقضها
كمجردات تجد كامل انسجامها على صعيد التطبيق . ولذلك فمرحلة
الامبريالية خير دليل على الانسجام التام بين الفكر التقليدى والفكر
الاستعمارى ، بل ان الواقع يؤكد على ان استمرارية الفكر التقليدى رهين
بالدعم الغربى الاستعمارى ، ولذلك ففى كثير من المناطق لاحظنا الرجعية
تمد يدها للغرب الاستعمارى لحمايتها من العواصف الشرقية . وهى اذ
تحمل على الغرب حملة عشواء فهى اذ تقصد اساسا الغرب الوثرى ، اى
البروليتارى . وهى فى الوقت الذى تنعته بالشيخيل وتجنبد طاقاتها
لمواجهته كفكر ثورى تطور امكانياتها لاستغلال البروليتاريا .
انها فى حاجة اليها كطبقة ، ولكن بتفكير غير بروليتارى ،
وهى بذلك تريد ان تحرم البروليتاريا من حقها الاممى فى
الوقت الذى تطور فيه «امميتها» الخاصة ، اى تجذير الامبريالية فى الوطن
العربى . اننا عندما نبحث عن اليسار فى الفكر التراثى ، فاننا عادة ما
ننتقى المظاهر النضالية لعصر من العصور ، ولكن خطأنا ينبع من كوننا
نحاول تطبيق تكتيك وخطط ذلك اليسار التراثى على الحاضر ، على واقع
رأس المال الاحتكارى ، على الواقع البرولتارى . ان هذا التطبيق التعسفى
ينفى البعد التاريخى ويؤدى فى النهاية الى استمرار تزايد نفوذ التراث
اليمنى . فاذا كانت اشتراكية اباذر الفغارى . وهى الحالة التى يعاد
ترديدها بدون كلل - صالحة فهى ليست مطلقة ، ولا مبرر لوجودها فى
عصر الامبريالية ، وتكون الاشتراكية التابعة من مواجهة رأس المال
الاحتكارى أقدر على الانتصار لانها تفهم اكثر من غيرها مواقع وتكتيك
وخطط وأفكار عدوها . انطلاقا من ذلك هل يمكن القول بأن الماركسية
غريبة عن المجتمع العربى ؟ كان من الممكن ان نتحدث عن نسط خاص من
الانتاج لو لم نحيا مرحلة استعمارية رأسمالية ولو لم تكن حلقة رئيسية من
حلقات نفوذ الامبريالية والرجعية العربية تفهم هذا جيدا ، فقوتها رهينة
بقوة اسيادها ، ولذلك فهى مستعدة دوما للسعى لانقاذها من ازماتها
والتضحية بمصالح الجماهير وتطلعاتها وخيراتها من اجل رفاهية وسعادة
السيد الكبير . وفى الممارسة تبدو الثورة الفلسطينية خير مرشد للعمل
وللرؤية الواضحة ايضا ، للحلفاء وللاعداء ، وبدون شك فان التاريخ سيزيل
الكثير من الاوهام وسيجلى حقيقة الصراع الطبقي والقومى والاممى .

ان الحكم العام بالايجاب او السلب اى الحكم المطلق كثيرا ما يخفق لانه يتجاهل الصراع ، يتجاوز التاريخ وينفى الجدلية .

2 - تحديد الهوية : ان الجواب عن «من نحن ؟» لا يتحدد دوما «اتجاه الآخر» لان هذا الآخر لا يشكل الا مرحلة تاريخية معينة . اذ تظل خصائص الانا مجهولة او متجاهلة . باضافة الى ان تحديدنا للآخر ينطلق من رؤية معينة ومن زاوية واحدة : قومية غير طبقية ، ويكون الآخر بهذا المعنى ايضا ذا بعد واحد . ولذلك فان تحديد هويتنا كثيرا ما فهم منه العودة الى التراث ، الى الاصل ، الى الخصوصية ، الى الماضى ، ولكن اى ماضى هذا ؟ المكتوب ام الماضى المرصوص فى ذاكرة الشعب ؟ اذ ان التاريخ المكتوب ليس الا تاريخ الحاكمين وهم يريدون فرضه كتاريخ واحد ووحد ومن ثمة ، يتحول تحديد هويتنا الى تحديد هويتها ، لذلك بان اغتيال الموقع الطبقي فى تحديد الانا يؤدى الى موقف لا تاريخى . من نحن ؟ تقتضى دوما «من الآخر» وأداة الجواب ليست دوما قوميه بل لماذا لا تكون اممية ، وحين اقول اممية فهذا يعنى ان منطلقها طبقى . ثم لماذا نعود الى النصوص المكتوبة لنعتبرها اجوبة وحيدة نمختلف الاسئلة . لماذا نتجاوز الحياة المعاشة الواقع الحقيقى كجواب حاسم . من انت ؟ - انا عربى . من انت : انا عامل . من انت : انا فلاح . الخ ألا يعنى ذلك انه لا يمكن فصل القومية عن الاساس الطبقي . ألا يعنى ذلك ايضا ان القومية كما تفهمها الرجعية فهم نسبي وليست كما تدعى فهما مطلقا واخيرا ألا يكون تحديد الهوية هو الموقف النضالى ، اى الموقف التاريخى الحقيقى . فعندما نحدد هويتنا اتجاه الآخر فان ذلك لا يعنى كما فهم البعض تحديدا مطلقا بل هو تحديد للعدو فى مرحلة تاريخية معينة . انه تعبير عن موقف نضالى اتجاه الآخر مهما اختلفت اشكاله وملاحمه وجنسياته . فهو ليس دوما العدو القومى بل العدو الطبقي والعدو الاممى ايضا . ان «النضالية» ليست بنية خارج التاريخ بل من صميم التاريخ بل هى التاريخ ذاته ، هى تحقيق للتاريخ على صعيد الحياة وعلى صعيد الوعي .

3 - تقنوقراطيو التخلف والثقافة : ان انجانب الذى يبهرننا فى الغرب هو التقنية ، ولذلك فان الغرب الدخيل يتحول الى اعظم هبة سماوية عندما يتعلق الامر بالاته وأرقامه وأدمغته الالكترونية وعلمه الوضعى . وبذلك ايضا يصبح العلم الغربى ميزة من ميزات الثقافة الغربية الاستعمارية ، وأنه لا يمكن ان يكون هناك علم الا فى ظل ثقافة الغرب ، ان من يدعى ذلك يجهل بدون شك تاريخ تطور العلم . اذ العلم الحديث ليس الا امتداد او ثورة على العلم القديم ، فالاختراعات العلمية الحديثة بالرغم من التطور الهائل الذى احدثته فى العالم المعاصر لا تفوق اهمية الاختراعات البشرية القديمة كالبوصلة والعجلة وغيرهما . ان هذه الاختراعات تشكل اهمية

قصوى فى تطور التجربة العلمية . ان العلم الحديث حانظ على ما كان حيا فى العلم القديم . ان الغصون المينة هى التى قطعت ، انه امتداد لعنوم الصين ومصر واليونان والعرب ، بل هو امتداد للتاريخ البشرى . وان من يشير بأصابع الفخر الى تقنية الغرب باعتبارها نتاجا بورجوازيا هائلا، اى تقنوقراطيو التخلف يتجاهلون بان التقنية لم ندى يوما اداة لتطوير شعوب العالم الثالث ، بل اداة سياسية لاستغلاله ، وتجذير هيمنة العالم الرأسمالى ، كما ان التقنية لم تكن عاملا حاسما فى تغيير العقلية التقليدية اذ لا ترى فيه هذه العقلة الا وسيلة سهلة للاتراء ووسيلة لحياة اكثر رفاهية. ولذلك تضحى بالجماهير من اجل التقنية. ان النظرة التقنوقراطية تنظر للطبيعة فى استقلال عن المجتمع . عن الانسان وهى تخطط بالاضافة الى ذلك بين علوم الطبيعة والعلوم الانسانية . وأخيرا فان العلم فى نظومها يتجاوز الصراع المجتمعى ، يتجاوز الثقافة . اننا نعنى بالثقافة هنا مجموع الانتاج المادى والروحى فى الفن والعلم ، فى المعرفة والعمل ، انها طريقة التفكير والسلوك ، انها موقف ، انها حصيلة شعب فى نضاله المستمر من أجل تحرره من الطبيعة واخضاعها من جهة ، ونضاله من اجل تحطيم كل أشكال الاستغلال السياسية والاجتماعية والقضاء على استقلال الانسان للانسان التى ينشأ من خلال تطور المجتمع البشرى وطريقة انتاجه. ان الثقافة بهذا المعنى تعبير ونتيجة علاقة الانسان بالمجتمع من جهة وبالطبيعة من جهة اخرى ، انها توجد داخل كل شعب ، لاتنفصل عن الحياة ، وأينما كانت هناك حياة ، فلا بد ان تكون هناك ثقافة .

ان العلم بهذا التحديد لا ينفصل عن الثقافة ، عن المجتمع ، عن الصراع الطبقي. وان خطأ تقنوقراطيو الغرب ووههم الابدى يكمن فى عدم ادراك هذه العلاقة وفى محاولتهم التمسفية الواعية لنفيها . هذه الموضوعات الاولى ليست الا بداية نقاش هدفه مشاركة مثقفينا فى توضيح الغموض ورفع كل الالتباسات المتعلقة بثقافتنا ، انه مجرد اسهام متواضع فى مشروع كبير .

سليم رضوان